

منهج الطبري وابن كثير في التفسير

دراسة تأصيلية تطبيقية مقارنة .

الأستاذة: سامية دردوري

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

مقدمة:

الحمد في الذي دعا الناس إلى الإيمان به، ونصب لهم آيات وحدانيته، ودلائل ألوهيته، وعلامات ربوبيته، بما منحهم من نظر دقيق، ثاقب، فكر عميق نافذ. وأرسل رسوله الأمين: الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وبيّن للناس، ما أنزل إليه، من وحي، ونصح الأمة، دعاها إلى التقه في الدين، والالتزام، بشرية رب العالمين.

وبعد:

— إن التفسير من أهم العلوم الشرعية، لأن محوره الأساسي، القرآن، وهو المصدر الأول من مصادر الشريعة الإسلامية، الذي لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد اهتم به المسلمون منذ الصدر الأول.

وقد ارتأيت أن أوضح منهج الطبري، وابن كثير، والفرق بينهما، فكلاهما ينتمي إلى مدرسة التفسير الأثرية فاستعنت بتفسير كل من الطبري وابن كثير، كتاب "التفسير والمفسرون" وكتاب "مناهج في التفسير" الذي بين منهج الطبري بإسهاب. وفقد قسمت بحثي هذا إلى مقدمة، ومدخل تناولت فيه ترجمة الطبري والتعريف بكتابه وترجمة ابن كثير والتعريف بكتابه أيضا، ثم دخلت في الموضوع، ببيان منهجي الطبري وابن كثير في التفسير، ثم وضعت مقارنة بينهما، وبعد ذلك اخترت نموذجا لبيان طريقة تفسيرهما: وعقدت مقارنة بين الطريقتين ثم ختمت البحث بخاتمة تضمنت ملاحظة هامة.

مدخل إلى البحث: توجمة الطبري: هو الإمام أبو جعفر، محمد بن جرير ابن

يزيد ابن كثير ابن غالب الطبري، الإمام الجليل، المجتهد المطلق، ولد بأمل بطبرستان سنة (224هـ) أربع عشرين ومائتين للهجرة¹، ورحل من بلده لطلب العلم، وهو ابن اثنتي عشر سنة، عام ست ثلاثين ومائتين للهجرة²، كانت جيته الأولى في الري، ثم بغداد، ثم واسط، فالكوفة، ثم عاد إلى بغداد، ثم قصد الشام، بعدها رحل إلى مصر سنة ثلاثة وخمسين ومائتين 253 هـ ثم رجع إلى الشام، وبعدها إلى مصر سنة ست وخمسين ومائتين 256 هـ. ثم انتقل إلى بغداد، وبقي فيها إلى أن توفي سنة 310 هـ عشر ثلاثة مائة للهجرة.

وأثناء طوافه في هذه الأقاليم سمع الحديث، ودرس القرآن، والتاريخ، ثم

تلقى فقه الشافعية.³

قال السيوطي: "كان أولاً شافعيًا، فم انفرد بمذهب مستقل، وأقوال

واختيارات له أتباع مقلدون، ولو في الأصول الفروع كتب كثيرة"⁴. ولم يستطع هذا

المذهب الذي يقال لأتباعه الجريرية، البقاء إلى يومنا هذا.⁵

مرتبته العلمية: قال الخطيب البغدادي: "كان حافظاً لكتاب الله، بصيراً

بالقرآن، عارفاً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها

وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من

المخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس أخبارهم"⁶.

شيوخه: سمع الحديث من محمد بن حميد الرازي، والمشي بن إبراهيم

محمد بن العلاء الهمداني، وغيرهم ودرس القراءات، ن أحمد بن يوسف الثعلبي،

سليمان الطلحي. التريخ على يد محمد بن أحمد لدلالي محمد بن إسحاق بن

خزيمة.

منهج الطبري وابن كثير في التفسير

وتلقى فقه الشافعية عن الحسين ابن محمد الصباح الزعفراني، وبي سعيد الإصطخري، الربيع ابن سليمان المرادي غيرهم⁷.

كتبه: كتاب "القراءات التنزيل" وكتاب في "عبارة الرؤيا"، وكتاب "تهذيب الآثار"، وكتاب "أخبار شريع الإسلام"، و"أدب القضاة"، "اختلاف العلماء"، وكتاب "تاريخ الأمم الملوك"، و"تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين"، "البيصر في معالم الدين"، "صريح السنة"، "جامع البيان عن تأويل القرآن"، ولم يبق من هذه الكتب إلا كتابه في التاريخ والأخر في التفسير⁸.

تلاميذه: القاضي أبو بكر أحمد بن كامل خلف، عبد العزيز محمد الطبري، أبو إسحاق ابن إبراهيم، ابن حبيب الطبري.

التعريف بكتب التفسير للطبري:

مؤلف الطبري في التفسير من المؤلفات الثمينة في المكتبة الإسلامية فاطبري من مقدمة تفسيره يوضح الخطأ التي بموجبها يتعرض للتفسير القرآني، فتفسيره صورة واضحة لمذاهب التفسير، منذ عصر الرسالة المحمدية حتى مطلع القرن الرابع للهجرة.

كيف قسم كتابه:

بدأ الطبري كتابه بمقدمة طويلة، بها عدة فصول، فالفصل الأول يناقش فيه، عريية القرآن، وما يتميز به أسلوب القرآن من خصائص، ثم ينتقل إلى إثبات: أن القرآن عربي اللفظة المفردة في فصل ثاني، ثم فصلا آخر، بعنوان "القول في اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب"، ثم ينتهي إلى بيان خطئه في التفسير، في فصل سمي "القل في الوجوه التي من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن"، ثم يصر الطبري، التيارات الفكرية التي سادت عصره، عصر من قبله، التي تناولت تفسير النص القرآني وفق الهوى، ويذكر فصلا، فيه ما اثر من روايات، تنهى عن تفسير بالرأي. ثم ذكر فصلا، بعنوان "تكر بعض الأخبار التي رويت في لحض

على العلم بتفسير القرآن من كان يفسره من الصحابة، وهذا في مواجهة النزعة المخرجة في التفسير، ثم يورد الطبري فصلاً بعنوان 'نكر بعض الأخبار التي خلط في تأويلها منكر القول في تأويل القرآن'.

وعنون فصلاً آخر تذكر أن الأخبار عن السلف في من كان من قماء المفسرين محموداً علمه بالتفسير ومن كان عنهم مذموماً علمه بذلك.

قال السيوطي: كتاب الطبري في التفسير أول التفاسير، وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، وللإعراب، والإستنباط، فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين، وأعدده رأس المفسرين على الإطلاق، جمع في تفسيره بين الرواية والدراية، فلم يشركه في ذلك أحد قبله، ولا بعده⁹.

وقال أبو حامد الأسفراييني: 'لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً'.

وقال النووي: 'أجمعت الأمة على أنه لم يصف مثل تفسير الطبري'.

قال ابن تيمية: 'وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير ابن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف، بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل ابن بكر الكلبى¹⁰'.

ترجمة ابن كثير:

مولده ونشأته: هو إسماعيل ابن عمر ابن كثير، بن ضو بن درع القرشي، البصري، دمشقي، عماد الدين أبو الفداء، مؤرخ، مفسر، محدث، من فقهاء الشافعي، ولد سنة 701هـ وقدم مع أخيه إلى دمشق سنة 706هـ، بعد موت أبيه، وبها نشأ وتعلم¹¹. كان قد كف بصره في آخر عمره. وتوفي في شعبان سنة 724هـ، ودفن في مقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية¹².

شيوخه: سمع من ابن السُّحنة، والامدي، ابن عساكر، كما أخذ عن ابن

تيمية، وكان متأثراً بهذا الأخير كثيراً.¹³

مكانته العلمية: قال عنه ابن حجر: " واشتغل بالحديث مطالعة في متونه،

ورجاله، وجمع التفسير، وشرع في كتاب كبير في لا حكم، ثم يكمل، وجمع

التاريخ، الذي سماه البداية والنهاية... وكان كثير الاستحضار¹⁴ وقال الذهبي عنه

في المعجم المختصر: " الإمام المفتي، المحدث، البارع، فقيه، منقطن، محدث

منقن...¹⁵ قل فيه أحد تلاميذه بن حبي: "أحفظ من أتركه لمتون الحديث، وأعرفهم

بجرحه ورجالها، صحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك...¹⁶"

يقول عنه الداودي: " الحافظ أبو الغداء اسماعيل، بن عمر، ابن كثير

القرشي، لبصروي، الدمشقي الشافعي، أقبل على علم الحديث، وأخذ الكثير عن ابن

تيمية وسمع الكثير. وقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد، والعلل، والرجال،

والتاريخ، حتى برع في ذلك وهو شاب¹⁷.

التعريف بكتاب ابن كثير: يعد تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير

بالمأثور، عنتى فيه مؤلفه بلرواية عن مفسري السلف، ففسر فيه كلام الله تعالى

بالأحاديث والآثار، مسندة إلى صحابه، بصفة عامة وهذا بعد أن يفسر الآيات بآيات

قرآنية أخرى إن وجدت، وطبع هذا التفسير مع معالم التفسير اللغوي، ثم طبع

متفلاً¹⁸

كيف قسم كتابه:

لقد أفرد ابن كثير كتابه به بمقدمة هامة، وقصيرة بالنسبة إلى مقدمة بن

جرير فبعد أن حمد الله وأثنى عليه، تكلم عن وجوب التفسير وضرورته، ثم ذكر

أحسن طرق التفسير عنده، ويعدده قسم الإسرائيليات إلى ثلاثة أنواع، مبيناً النوع

الذي يستطيع لمفسر اعتماده في تفسيره، وبين بعده م أنزل من السور، في المدينة،

ثم عدد لآيات، ومعنى كلمة "سورة"، واستشهد على ذلك بالشعر، وكذا فعل في كلمة

آية، ولماذا سميت بهذا الاسم، وأخيراً ذكر قصلاً فيه آراء العلماء في عريية القرآن كالقرطبي وابن جرير.

منهم الطبري في تفسيره:

إن الناظر في تفسير لطبري بصفة متنية، أول ما يلاحظ أنه إذا أراد أن يفسر آية من القرآن يقول تقول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا، ثم يشرع في شرحها، متبعاً في ذلك الخطوات التالية:

1 - التفسير بالمأثور: نجده يدعم مذهب إبيه من معنى الآية، بم برويه بسنده عن الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابعين من التفسير لمأثور عنهم في هذه الآية.

وهو يعتني في كل ذلك بما يلي:

أ - الإسناد الدقيق في سلاسل الرواة، فيسجل كل الروايت بسندها، التي قد تختلف تفصيلاً إيجازاً.

فهو يتحدى الدقة والمانة في ذكر السند (أسماء الرواة)؛ لأنه اتصل بكثير من العلماء وسمع منهم، وكان إذا سمع هو وغيره قال: حدثنا، وإذا سمع وحده قال: حدثني، وإذا نسي واحد من سلسلة الرواية صرح بنسيانه¹⁹، غير أنه قد يسوق أخباراً بأسانيد غير صحيحة، ثم لا ينبه على عدم صحتها، فهو غالب لا يعقب الأسانيد بتصحيح أو تضعيف، لأنه يرى ن من سند فقد حملك البحث عن رجل السند، ومعرفة مبلغهم من العدالة والجرح، فخرج بذلك عن العيدة، ومع ذلك فإنه وقف من لسند أحياناً موقف الناقد البصير²⁰.

وذلك عند خلاف المأثور: يقسم الأراء، ويضع تحت كل ري مروياته، ثم يعقب عليها بالنقد.

ب - انتقد: هذا المقياس الذي يوجهه إلى متن الرواية، وكذا سندها، فيبدأ نقده بالتوقف عند الروايات التي أنثرت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أي الأحاديث

النبوية، ناظرا إليها بنظرة المحدثين، ومستخدمًا في ذلك مقاييس الجرح والتعديل في روتها، ثم مقمًا منها ما صحت نسبتها إلى الرسول ﷺ.

وأما الروايات النقلية لغير الرسول، فيعرض للأراء المختلفة في التفسير، مع ذكر أصحاب تلك الروايات ثم يناقشها، خاتمًا ذلك كله بما يراه أولى بالترجيح، ونكرا مبررات ترجيحية لرأي منها، وقد يردّها كلها، وينص على رأيه الخاص.

2 - التفسير اللغوي: يعتمد الطبري على اللغة؛ نظرا لتقافته اللغوية الواسعة،

فبين لمعنى لأصلي للفظ، والمعنى لمنقول إليه، والعلاقة بين المعنيين، ويفضل معنى لكلمة على معنى آخر تحتمله، مستعينا في ذلك كله: أ - بما هو معروف من كلام العرب: (من شعر ونثر) فيتشهد بالشعر بشكل واسع، وأقول العرب في الجاهلية، وفي الإسلام، نورد مثلا لذلك في تفسيره لقوله تعالى: قل تجعلا لله ندا...²¹

يقول: قال أبو جعفر: والانداد جمع ند، والند: العدل المثل كم قل حسان بن

ثابت: تهجوه ولست له بند قسركما تحير كما الفداء

ويعني بقوله: ولست له بمثل، ولا عدل، وكل شيء كن نظيرا للشيء

وشبيها فهو له ند²².

هو تارة يذكر اسم لشعر، وأخرى يغفله، مكتفي بالشعر، وهو بهذه الطريقة

يكون متبعا لما ثاره ابن عباس، والقرء، أبو عبيدة والزجاج، في استخدامهم التفسير

للغوي²³.

وما يتسم به أنه: يخذ بظهور دلالات للفاظ اللغوية، فيؤثر التفسير بالظاهر

على التأويل بلباطن، ويحتكم إلى الغلب لمعروف في ستعمل العرب للفظه، ما دام

ليس هناك حجة تصرف لمعنى القريب والشهر، إلى المعنى البعيد، والحجة هي

الكتاب أو لخبر عن الرسل صلى الله عليه وسلم أو إجماع أهل التأويل²⁴.

كما اهتم الطبري بالمذاهب النحوية: فهو يعرضها أولاً كمذهب البصريين مثلاً ومذهب الكوفيين إذا دعت الحاجة إليه، ثم يختار منها ما يتفق مع الطريقة الملوقة للعرب في التعبير²⁵.

ملاحظة:

وإذ كن للطبري تفسيرات صحيحان، حذم لأهل التفسير، والآخر لأهل اللغة، فيترجح لديه رأي أهل التفسير؛ لأنه ما دامت هناك رواية نقلية في التفسير، فلا مجال للتفسير اللغوي حينئذ.

3. اجتنابه التفسير بالرأي:

ولتزم الطبري هذا لسلوب في كتابه، فكان يرفض من آراء المفسرين ما يعتمد فيه المفسر على رأيه، ويخاصم بشدة تلك الآراء التي لا تستند على العلم الرجوع إلى الصحابة والتابعين، بل تعتمد على مجرد الرأي أو محض اللغة²⁶، لذلك تجده في طيت كتابه، يناقش أبو عبيدة، ويرد على ما يروى عن مجاهد، أو الضحاك أو غيرهما ممن يروون عن ابن عباس، ولأن الطبري ينكر على من يفسر بمجرد الرأي؛ فقد عقد فصل في مقدمة كتابه، ذكر فيه أخباراً عن لرسول صلى الله عليه وسلم، تنهى عن القول في التفسير بالرأي، ومن هنا رد على تلك الفرق لتي كانت تلون المعنى القرآني وفقاً للهوى وللمعتقدات الباطلة، كالمعتزلة التي لجأت إلى التأويل العقلي نجادت عن طريق أهل السنة والسلف²⁷.

4. يكثر من الإسرائيليات:

أما في تفسير القصص فإنه يورد روايات يزويها بسنده إلى كعب الحبار ووهب بن منبه، وابن جريج والسدي وغيرهم كثيراً ما ينقل من محمد بن إسماعيل مم رواد عن مسلمة النصارى؛ مثلاً في تفسيره لآية 94 من سورة الكهف قالوا يا ذا القرنين إن باجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً، فذكر الرواية بسندها قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن

إسحاق قال: حدثني بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل لكتاب ممن قد أسلم مما توارثوا من علم ذي القرنين أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصدر اسمه مزريا ابن مرد به اليوناني من لونيون بن ياقث بن نوح... إلخ²⁸ فالطبري حين ينكر هذه الروايات، غالبا ما ينكرها بسنده في النقل، وقد يعقب على بعض الروايات، ولكنه يتساهل في بعضها، هذا ما لاحظناه، فعمل ذلك راجع إلى أنه يرى في ذكر السند مع كل رواية، ما يبرئ نتمته، ويلقي بالتبعية على المنقول عنه، فيكون بذلك خارج من العهدة، وعلى من بعده ن ينظر في السند ويتفقد الروايات، لذلك فتفسيره لا يزل محتاجا إلى النقد الفاحص الشامل²⁹.

ونحن نلاحظ أن ابن كثير - بما أنه ينقل عن ابن جرير -

قد قام بدور هام في التنبيه على بعض الإسرائيليات التي جاءت في تفسير الطبري، خاصة وأن ابن كثير من علماء الحديث، كما علق على بعض لروايات التي أوردها لطبري، فضعفها أو شك فيها.

5. **إتقانه بالإجماع:** يجعل الطبري من إجماع الأمة، دليلا على صحة ما

يذهب إليه من تفسير، إذا لم يتعين المراد من النص³⁰.

وذكر الضاوي الجويني في كتبه مناهج في التفسير أن أساس الإجماع لدى الطبري، هو ما ينقله من روايات الرسول والصحابة والتابعين في التفسير، وكذا ما أجمع عليه أهل التفسير في تفسيرهم للأية، فيضم الطبري كل ما قيل في الآية من هذه التفسيرات ويسميه إجماعا وحجة ولا يبيح للري اللغوي الدخول فيها³¹.

6. **اعتناؤه بذكر القراءات:** لصلته الوثقى بالمعنى، فيعرض وجود

القراءات، وينزلها على المعاني المختلفة، ثم يختار ويرجح منها ما ارتضاه، لأنه كان عالما بالقراءات ومؤلفا فيها، ذاكرا مبرر ترجيحه، وهو أنه لا يعتمد منها إلا بما عليه قراء الأمصار المعول عليهم في الاحتجاج³².

7. معالجته للقضايا الفقهية: نجد في تفسيره أثرا واضحا، للقضايا الفقهية،

ذلك أن الطبري، كما علمنا سابقا به كتاب "اختلاف الفقهاء"، فهو فقيه دارس للمذاهب كلها، بل مجتهد صاحب مذهب اختاره لنفسه، فمن البدهة أن يعرض للأراء الفقهية، ويناقشها في مناسباتها من آيات الأحكام.

فيعالج أقوال العلماء ومذاهبهم، وينتهي من مناقشة كل منها إلى ما يستوصيه من رأي يختاره لنفسه، يرجحه بالأدلة العلمية القيمة³³.

8. خوضه في مسائل الكلام:

نلاحظ في تفسير ابن جرير، أنه تعرض لمسائل الكلام، عند كثير من الآيات القرآنية، فتعرض لأراء المنكلمين، وكان يسميهم أهل الجدل ناقشها، كما رد على آراء كثير من المذاهب المنحرفة، التي خالفت تعاليم أهل السنة، كالخوارج والقدرية والمعتزلة، ولكن الطبري لا يوغل في النقاش الكلامي فيما يتصل بتفسير آيات أفعال الله وصفاته، فهو يشارك في ذلك الجدل الكلامي لكن بحرص شديد حفاظا على مذهبه السلفي³⁴.

— بعد أن أنهينا منهج ابن جرير في التفسير، فما نلمحه ونلاحظه، من تفسيره، هو الإدلاء برأيه، بعد عرض الآراء ومناقشتها، فإبن جرير حين يرفض رأيا أو تفسيراً معيناً، يردف تلك الرفض بالتعليل المنطقي، وحين يرجح ويختار من التفسير، يأتيك بالدليل على ترجيحه، ويأتيك بالبرهان والحجة القاطعة على ما انتهى إليه، لذا أنتج لنا تفسيراً قريداً من نوعه، امتزج فيه النظر بالأثر والدراية بالرواية، فكان مرجعاً منها عند العلماء، من مراجع التفسير بالرواية، بما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة، وبالدراية، بما فيه من ترجيحات مختلفة، تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية، فجعله ذلك، مرجعاً لا يستغني عنه أحد على مر العصور.

منهج ابن كثير في تفسيره:

يلاحظ القارئ بعجالة، لتفسير ابن كثير، أنه يعتمد على الأسلوب السهل، الموجز، ويفتح قوله الخاص بـ "قلت"، وينهي كلامه بـ "والله أعلم"، إذا جاء بحديث آخر في نفس الموضوع يشير إلى ذلك — أما المتأمل في تفسيره يستج الآتي:

- 1 — يفسر القرآن بالقرآن: حيث يسرد عدة آيات من نفس معنى الآية التي هو بصدد شرحها، هذا ملاحظ في معظم تفسيره.
- 2 — يذكر عدة أحاديث مفسرة للآية، بأسانيدھا، ويقوم بتخریجھا، ويعدل ويجرح روايتها خاصة وأنه يعد من المحدثين.
- 3 — يذكر أقوال الصحابة، والتابعين، والسلف، ويبين الصحيح منها، أو الأصح والمردود منها.
- 4 — يستعين بعلم اللغة، والقراءات لبيان المراد من الآية، ويعطي المعنى الاصطلاحي للفظ إذا وجد³⁵.
- 5 — يتعرض لأراء الفقهاء في آيات الأحكام، ويأتي بدليل كل منهم، وأحيانا يرجح دون إعطاء رأيه الخاص³⁶.
- 6 — يبين مناسبة الآية مع التي قبلها، يذكر سبب النزول.
- 7 — وكثيرا ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبي حاتم وغيرهم ممن تقدمه³⁷.
- 8 — ومما يمتاز به ابن كثير، أنه ينبه إلى ما في التفسير بالمأثور، من منكرات الإسرائيليات، ويحذر منها على وجه الإجمال نارة، وعلى وجه التعيين، ويبين منكراتها نارة أخرى، مثل تفسيره قوله تعالى في الآية 67، وما بعدها من سورة البقرة³⁸.
- 9 — يذكر أراء الفرق الإسلامية غير رأي أهل السنة، ويرد عليها.

مقارنة بين منهج الطبري وابن كثير:

نستخلص من هذا البحث، أن كلا من تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير إسماعيل ابن عمر، يصنف ضمن التفسير بالرأي والمأثور، ومنهجهما المتبع في تفسيريهما، متقارب جداً، وهو المنهج التحليلي، إلا أن ابن كثير، قد أوجز واختصر، والطبري قد أسهب وأطنب، وذلك ملاحظ في المساحة التي أخذها كل من الكتابين، فتفسير الطبري، يقع في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، بينما تفسير ابن كثير، قد أخذ حيزاً أضيق، فهو يقع في أربعة أجزاء من الحجم الكبير، وفي طبعة أخرى سبعة أجزاء، من النوع المتوسط، ويقول عنه العلماء، أنه يعتبر الكتاب الثاني - بعد كتاب ابن جرير - الذي اعتنى فيه صاحبه، بالرواية من مفسري السلف، ففسر فيه كلام الله تعالى بأحاديث، ولتأثر مسندة إلى أصحابها، كما جرح عدل، ونجد أن ابن كثير ينقل عن ابن جرير، ذلك أن هذا الأخير، كان ممن سبقه عصراً.

هذا ما جعل المقارنة بين منهجيهما صعبة إلى حد ما، فالفرق بينهما لا تكاد تعد، لعل ما يختلف فيه ابن كثير عن ابن جرير، هو اعتبار الأول أكثر سرد للآيات المتناسبة في المعنى الواحد، فهو شديد العناية بتفسير القرآن بالقرآن، بينما الطبري لم يسلك هذا المسلك إلا في بعض الأحيان، حين يربط السياق، ويعود بمراجع الكلام، إلى معانها الواردة في مواضع أخرى، من القرآن الكريم. كم أن ابن كثير يختصر أحياناً في الأسانيد الطويلة، فلا ينقلها كاملة، بل يقتصر على راوٍ حد أو اثنين، واستنتجنا أن ذلك يرجع إلى صحة الحديث، أو شيرته، وخاصة إذا كان من الكتب الصحاح في الحديث، كصحيح البخاري وصحيح مسلم، ينقل منها قائلاً: "في الصحيحين"، ثم يذكر الحديث، أو يقول: "في الحديث الصحيح"، إذا نقل الحديث بسنده، فإنه ينظر فيه فيجرح، ويعدل الرواة ويرجح بعض الأقوال، ويضعف بعضها ويصحح البعض الآخر وهذا راجع فيما استخلصه إلى ما كان

عليه من المعرفة بمتون الحديث، وأحوال الرجال، بينما نجد الطبري، في الأغلب الأعم، لا يتعقب الأسانيد بتصحيح، ولا تضعيف، لأنه كان يرى كما هو مقرر في أصول الحديث - وهذا ما علله له الباحثون - أن من أسند لك، فقد حملك البحث عن الرجال والسند، ومعرفة مبلغهم من العدالة والجرح، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة، ومع ذلك فإنه يقف عن السند أحيانا، موقف الناقد البصير، فيعدل ويجرح، ويرد الرواية التي لا يتق في صحتها، يصرح برأيه بما يناسبها³⁹. فنحن نرى أن الطبري قام بجهد عظيم، لأنه نقل لنا ذلك التراث الضخم من التفسير، ومروياته ذكرا الأسانيد، فعلى من بعده أن يقوم بالفحص والتمحيص، بناء على القواعد التي وضعها النقاد للتصحيح والتضعيف، ويتعرض الطبري لإعراب الكلمات، يذكر مذاهب النحويين المختلفة، بينما ابن كثير قليلا ما يتعرض لها.

كما نجد أن ابن كثير في آيات الأحكام، يذكر آراء الأئمة الربعة ويرجع منها رأيا، أما الطبري فيذكر آراء فقهاء الصحابة والتابعين دون التعرض للمذاهب الأربعة بعينها، وفي الغالب يختار رأيا جديدا لنفسه مع الدليل ويعلل الرأي الذي اختار، بالإجماع الذي يعتبر ميزة خاصة للطبري، بينما ابن كثير ليست له هذه الميزة

يتعرض الطبري بكثرة للقراءات في لفظة معينة، بينما لا يذكرها ابن كثير

إلا نادرا.

تفسير الآية الثامنة والعشرين من آية آل عمران:

"لا يتخذ المؤمنون الكافرون أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء، إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير"

طريقة تفسير الطبري لهذه الآية:

فسر قوله تعالى: "لا يتخذ المؤمنون... تقاة"، الآية باننا بسا القول في قوله الآية فقال: "وهذا نهى من الله عز وجل المؤمنين، أن يتخذوا الكفار أعوانا وأتصارا، وظهورا. ثم تعرض لناحية الإعراب فقال: لذلك كسر يتخذ في موضع

جزم بالنهي، ولكنه كسر الذال منه للساكن الذي لقيه، وهي ساكنة، ثم أكمل التفسير بقوله: "معنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا، وأنصارا، نوالوا منهم على دينهم، وتظاهروا منهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء يعني بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه، دخوله في الكفر"، ثم فسر قوله تعالى: "إلا أن تتقوا منهم تقاة"، إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافوا على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بالسنكم، وتظمروا لهم العداوة، ولا تسابِعونهم على ما هم عليه من الكفر، تعينونهم على مسلم بفعل"، ثم ذكر سبب النزول، عن ابن عباس وقوى ما جاء عن مجاهد بطريق آخر حيث قال: حدثني محمد بن عمرو قال حدثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين إلا مصانعة في الدنيا مخالفة". حدثني المشي قال: حدثنا أبو حذيفة قال: حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله وبعد أن أورد معنى المولاة أتبعها بتفسير "تقاة": "والنقبة بذكر الأثار رويت عن الصحابة، والتابعين، كأكرمة ومجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وابن عباس"، وبعدها ذكر معنى آخر للآية "إلا أن تتقوا منهم تقاة"، والنقبة بذكر آثار رويت عن الصحابة والتابعين كعكرمة وأبو العالية والضحاك، وابن عباس، وبعدها ذكر معنى آخر للآية "إلا أن تتقوا منهم تقاة" عن قتادة، ثم رد هذا الوجه، رغم أن الآية تحتمله كما قال، معللا ذلك أن ذلك الوجه انصرف عن ما يدل عليه الأغلب الظاهر من معروف كلام العرب المستعمل فيهم وبعدها ذكر اختلاف القراء في قراءة "إلا أن تتقوا منهم تقاة"، فأورد قرائتين، ورجح قراءة "تقاة"، على قراءة "تقية"، لأنها مما أجمع عليه قراء الأنصار، المعتمدون لديه، ذلك للنقل المستفيض فيها وأخيرا فسر قوله تعالى: "ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير" 40.

استنتاجات:

- 1 - ابتدأ تفسيره بـ "القول في تأويل قوله".
- 2 - تعرض لناحية الإعراب في كلمة "يتخذ".
- 3 - ذكر الروايات بسندها، ومنتها، ذكر طريقاً آخر يقوى رواية المجاهد.
- 4 - بدأ الحديث بحدثاً، أو حدثي، مما يشير لتحريره الدقة في السند.
- 5 - ذكر معنى آخر لتفسير "إلا أن نتقوا منهم نقاة" ورده، ذاكرا العلة في ذلك مما يؤيد ما ذكرت سابقاً بأنه يرجح الأقوال، يرد بعضها بالدليل.
- 6 - ذكر القراءات المختلفة في لفظة "نقاة"، ورجح الأصح منها، بدليل ويتجلى هذا في كل أجزاء تفسيره.

طريقة تفسير ابن كثير للآية الثامنة والعشرين من آل عمران:

بدأ بتفسير الآية جزء جزء، ففسر قوله تعالى "لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين"، ثم فسر قوله تعالى "ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء"، فقال: "أي من يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله"، ذكر جملة من الآيات، تفسر هذه الآية، وتؤيد ما ذهب إليه منها: "والذين كفروا أولياء بعض"، "إلا تغلوه، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير"، ثم فسر قوله تعالى: "إلا أن نتقوا منهم نقاة"، "أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم، بظاهره لا بباطنه ونيته"، وأيد ما ذهب إليه في تفسيره، بحدِيث البخاري، عن أبي الدرداء، وكذا الثوري عن ابن عباس، وقواد بطريق آخر عن العوفي، نون ذكر السند كاملاً. ثم ذكر أسماء من ذهبوا إلى رأي ابن عباس، وهم أبو العالية، وأبو الشعثاء، والضحاك، والربيع ابن أنس، بدون ذكر السند، ولا المتن كذلك، ثم يؤيد ما ذهب إليه هؤلاء بأية قرآنية، وهي "من كفر بالله من بعد إيمانه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان"، وبعد فسر قوله تعالى: "ويحذركم الله نفسه"، فقال: "أي يحذركم نعمته في مخالفته وسطوته، وعذابه، لمن وإلى عداه وعادى أوليائه. ثم قوله

